استحضار التراث في المدونة النقدية العربية المعاصرة

جابر عصفور نحو قراءة جديدة

د: وليد عثماني

جامعة: محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)

Abstract:

Gabir Usfur's Critical Heritage Approach envisages/ searches about a strong and sound way to question this heritage and to depict certain stances to determine its place, and its presence in us. So he takes the burden to account texts of heritage again to detect the roots of this speech and reveal all formats leading to its formation. Thus, he read previous critics and redefined some concepts that were founded on different elements of doubt as the concept of poetry, the artistic image and imagination.

Keywords Heritage – poetry – critics - Gabir Usfur - Approach

Résume:

L'Approximation de Gaber Asfour patrimoine critique envisagées Trouvez l'approche fondement patrimoine, et de se présenter au seuil de déterminer son statut et sa présence en nous... Il a pris sur lui de dispositions la nouvelle lecture du patrimoine afin de déterminer leur origines et a révélé les tendances générales. Il se mit à lire les critiques ancienne et de redéfinir certains concepts qui a été fondée sur les multiples éléments: le concept de la figure artistique et de poème et de l'imagination.

Mots clés : critique _ ancienne _ patrimoine _ Gaber Asfour - L'Approximation

الملخص

تتوخى مقاربة جابر عصفور للتراث النقدي البحث عن منهج قويم وأساس في مساءلة هذا التراث، والوقوف عند عتبات لتحديد مكانته، وحضوره فينا... فأخذ على عاتقه مساءلة نصوص التراث من جديد للوقوف على أصول هذا الخطاب وكشف مجمل الأنساق المؤدية إلى تشكيله... فأخذ في قراءة النقاد القدامى وإعادة تحديد بعض المفاهيم التي تأسست على عناصرَ متعددة من الشك كمفهوم الشعر والصورة الفنية والخيال.

الكلمات المفتاحية: تراث ــ النقد ــ قراءة ــ جابر عصفور ــ منهج

العرض:

يشكل (جابر عصفور) قطبا مهما في الخطاب النقدي العربي المعاصر، وبالخصوص الخطاب الذي يرمي إلى إعادة قراءة التراث بالوقوف عند العديد من محطاته التي تؤسس للدرس النقدي في صورته العربية، كما تؤسس للكشف عن مجموعة من الجوانب التي تحقق التوازن الإبستيمولوجي التراثي والحداثي، فغدت قراءة التراث عموما منهجا يستقرئ النص، ويعيد شرح عناصره المتناسقة والمنسجمة، مع إشارته إلى مجمل المرجعيات التي أحاطت بمكونات النص وشكلت أبعاده المختلفة، في ضوء افتراضات يقدمها القارئ لا تعدو أن تكون سوى فهم لسياقات النص الأصلية: صورة لنص أصلي منطلق أو نص غائب وباختصار إنها تأويل؛ بأن تُحمل تلك الافتراضات محملا معنويا يُسقط على النص المقروء لإعادة إنتاجه وتقديم صور جديدة له. والناتج هنا "أن القراءة تستوجب بدورها قراءة اصطلح عليها: تحليل عملية الفهم في نظريات التلقي، والتي هي أقرب ما تكون إلى "تاريخ الأدب" بصورة جديدة وأقرب ما تكون إلى التحليل النفسي للذهنيات والمواقف والفهم"[1] فتبعث هذه القراءة النص نصا جديدا من تشكلاته في السيرورة التاريخية،

وتدور حول الفهوم والقراءات التي قُدِّمت له، لتعيد قراءته من جديد على أنها تحليل نفسي يبحث في مختلف السياقات النفسية التي تأملت النص وبحثت فيه، وهنا تتشكل سلسلة التلقيات التي دارت كفهوم حول النص.

يقابل القارئ للتراث من منظور (جابر عصفور) النص في صورته الأولى القائمة على عناصره القارة والمحورية فيه، مسلطا عليه ما يملكه من أدوات قرائية؛ مختلف السياقات والأنساق مُشكَّلة من المنهج النفسي الاجتماعي والتاريخي كما يعتمد على المستويات اللغوية ومختلف أنظمة التحليل التي تسعى بجهدها إلى تقديم قراءة و"صورة ثانية" للنص، مدار الحديث في ميزان نقد النقد إذ تصبح هذه الصورة الثانية هي المعادل الموضوعي لمنهج نقد النقد حينما تدخل في إطار المقاربة القرائية لهذه القراءة/الصورة الثانية للنص، ومن هنا تنشأ منطلقات ومسوغات القراءة في نقد النقد. التي دعا إليها (جابر عصفور) عبر مفهوم يتيح له الوصول إلى ما لا يصرح به النص الذي لا يبوح بكل ما في ثناياه، على الرغم مما يُسلط عليه من أدوات وإجراءات معرفية قرائية. والقراءة بهذا المعنى هي إعادة فهم النص في سياقات غير معلنة، تسعى إلى اكتشاف مدلولات ومواقف مختزنة فيه.

أولا ـــ أهمية قراءة التراث:

لقد تحققت قاعدة متينة اشتغل (جابر عصفور) وفقها في قراءة التراث ومباحثةِ جوانبِه وزواياه المختلفة انطلاقا من مساره الأكاديمي والمعرفي الثري بإنتاجه، وبمرجعياته المتعددة. كما اطلع على مجمل القراءات التي قدمت حول هذا التراث قصد إثرائه أكثر وتبيين مناطق الظلام فيه فوقف ناقدا لها مستعينا بمنهج نقد النقد، وفاحصا ليتبين خصوصيات المنهج ويحدد منهجية مستقرة تصلح لممارسة آلية لقراءة التراث، يقول (حابر عصفور): "منذ سنوات طويلة وأنا منشغل بعملية قراءة التراث النقدي، بوصفها عملية ملحة لها أهميتها في ذاتها، وبوصفها عملية صغرى مرتبطة بعملية كبرى في قراءة التراث بوجه عام. وبقدر ما كنت أدرك أن الإلحاح على قراءة التراث هو الوجه الآخر من الإلحاح على قراءة الواقع أو الحاضر، فقد كنت أزداد اقتناعا أنه لا توجد قراءة بريئة أو محايدة للتراث، ذلك لأننا عندما نقرأ التراث ننطلق من مواقف فكرية محددة، لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة، بالمعنى الذي يتحدد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننطلق منها"[2] والهدف الذي يقف وراء عودة (جابر عصفور) إلى نصوص التراث هو تحقيق منهج متميز في القراءة مختلف عن الأنماط السابقة عليه، وطبيعي أن تكون أجهزة النقد المعاصر - بحسب العصر الذي ينتمي إليه (جابر عصفور) - تحكم هذه القراءة على أساس ما سبق أن أكده في وصفه للعلاقة التبادلية بين هذا الجهاز وأجهزة قراءة التراث "فعندما نضعه في سياقه التاريخي أو مواضعه التاريخية المخالفة لموضعنا ، فإننا نبقي على حضوره المغاير لحضورنا، ونحفظ لأنفسنا كياننا المستقل عن وجوده ، فنحرر من أوهامنا عنه، ونتحرر من خوف أن يحكم قيده على رقابنا"[3] وقد حدد (جابر عصفور) قراءتين أساسيتين للتراث، يتشكل الموقف انطلاقا منهما:

القراءة الأولى هي القراءة الوصفية للتراث حيث يُعزل التراث عن القارئ تمامًا؛ لكي يراجع الأثر مراجعة محايدة تمامًا. حيث تقوم هذه القراءة بتجريد التراث من "الذات القارئة" بوضع قداسته وما تكنه له إكبار وإجلال... على جنب، ليصير التراث موضوعا بعدما أن كان "ذاتا" "Être ". وهنا يصبح التراث "موضوعا" " Sujet" لتنطلق القراءة، بحيادية بعد أن خلعت عنه ثوب القداسة، وتلك المرجعية المتسلطة التي تدعو إلى عدم المساس به، وقبوله كما هو ولا اجتهاد في وجوده. وما التراث إلا حالة وعي تشكلت في زمن مضى وانقضى، وانغلاق الذات عليه بهذه الصورة الماضية ما هو إلا ظلم لها لأنها لم تتمكن من مسايرة عصرها والانفتاح عليه، وفي الكفِّ عن إعادة قراءته ضياع لهذا التراث في حد ذاته.

أما القراءة الثّانية فهي قراءته ضمن فاعلية تثاقفية مع القارئ ذاته، الأمر الذي يضفي عليها صبغة أيديولوجية بحيث يُسقط حضور العصر والقارئ معًا على المقروء (التراث) وتاريخه. تحقق هذه القراءة البعدية/الثانية نظرة شاملة

في النص المقروء ضمن السيرورة التاريخية التي نتجت عن سلسلة التلقيات والقراءات فالقارئ هو المركز في توجيه القراءة، وقد استطاعت عديد القراءات إذ ذاك خلق محورية دلالية للتراث. فتحقق القراءتان الأولى والثانية أبعادا منهجية تتيح نظرة دقيقة وشاملة في مقاربتها ومن هذا المنطلق باعتبار (جابر عصفور) لا توجد قراءة بريئة، أو محايدة للتراث، ذلك لأننا نقرأ التراث، وننطلق من مواقف فكرية محددة، لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننطلق منها.

ثانيا ــ قراءة جابر عصفور للتراث النقدي: قرأ جابر عصفور التراث النقدي وفق مستويين:

ــ أولهما المستوى النظري الذي تتصرف معه دلالة العبارة إلى وصف العمليات التصورية أو الآليات العقلية التي تقوم عليها أو تتضمنها قراءة التراث، على نحو تغدو معه العبارة واصفة لأبعاد العلاقة التي تربط القارئ المعاصر بتراثه من حيث هي علاقة إدراكية تنطوي على مجموعة من المستويات، وتتحرك عبر مجموعة من الوسائط، وتتشكل حسب مجموعة من النظم أو الأعراف، مما يجعل العبارة ــ داخل هذا المستوى ــ قرينة مباحث تتصل بنظرية "الهرمينوطيقا" من حيث هي "نظرية القواعد التي تحكم تأويلا من التأويلات، أي تحكم تفسير نص من النصوص، أو تفسير مجموعة العلامات التي يمكن النظر إليها بوصفها نصا"

ــ وثانيهما المستوى التطبيقي الذي تنصرف معه دلالة عبارة "قراءة التراث" إلى تقديم قراءة، أو قراءات تطبيقية لجانب أو أكثر من جوانب التراث النقدي موضوعا، أو فكرة أو إشكالية أو شخصية أو كاتبا.. إلخ، على نحو تغدو معه العبارة واصفة للتراث نفسه، من حيث هو معطى أو مدرك يتم التركيز على جانب من جوانبه، بدل التركيز على العلاقة الإدراكية الخاصة بالمستوى الأول، مما يجعل القراءة ــ داخل هذا المستوى الثاني ــ مشيرة إلى مجالات معرفية مغايرة، أقرب إلى "نقد النقد" من حيث هو نشاط معرفي ينصرف إلى مراجعة الأقوال النقدية، كاشفا عن سلامة مبادئها النظرية وأدواتها التحليلية وإجراءاتها التفسيرية، أو "النقد الواصف" "Metacriticism" من حيث هو تأصيل معرفي للمقولات العقلية التي تنطوي عليها المفاهيم المنهجية والعمليات الإجرائية للنقد أو القراءة وتصدر عنها.

وحدد (جابر عصفور) طبيعة إشكالية العقل العربي من منظور حداثي على مستويين: أنطولوجي وإبستيمي.

ــ الأنطولوجي: فالمشكلة تُطرح من خلاله في بعدها الفلسفي بتساؤلنا عن ذاتنا.. من نحن ومن نكون؟ وهل ترانا نحيا في لحظات تاريخية منقطعة عما قبلها؟ أم ترى وجودنا المتعين يمتد إلى ما قبل؟ ما قبل ماذا؟ وأين نقطة البداية أم ترى ليس ثمة بداية أصلا؟ لكننا نملك تراثا.. فما هي طبيعته؟ هل هو حضور هناك في زمان انفصل عن زماننا أم هو حضور هنا في زمن ممتد متصل؟ وتتماس هذه الأسئلة بغيرها مما يطرح الآن إلى التوحد ــ بفضل ثورة الاتصالات والتدفق اللحظي للمعلومات ــ وما يحمله من أخطار (أو فوائد) على ثقافات الأمم ذات السمات القومية المحددة"[4] هذه لحظة يتم فيها تضبط المبحث الوجودي/الكينونة؛ بحيث يتوجب رسم دائرة للوجود وترهينه بتحديد إجابة دقيقة عن الأسئلة السابقة قصد فهم اليوم بما تسبقه من حلقات قائمة على التواصلية أو الانصرام.

ــ وأما الإبستيمي: فإن مشكلة العقل العربي تتجسد في حاجته إلى امتصاص كل ما عرفته البشرية حتى هذه اللحظة، علاوة على حاجته إلى المشاركة في إنتاج هذه المعرفة وليس استيعابها فحسب. ولكن إنتاج المعرفة لا يمكن أن يتحقق إلا باستخدام أدوات معرفية متطورة مثل علم اجتماع المعرفة (ومن فروعه علم الاجتماع الثقافي) إضافة إلى المادية الجدلية والمادية التاريخية، وكذا الألسنية والبنيوية والتفكيكية والهرمينوطيقا... حيث يسعى بهذه الآليات إلى المقارنة بين الثقافات القومية وبين الحضارة، كما تتيح المواءمة بين التاريخ الذي ليس وجودا مستقلا في الماضي وبين الحاضر غير المعزول عن تأثير التقاليد المنتقلة للمعاصر عبر التاريخ[5] هكذا يتطبع العقل العربي إلى التأطير المنهجي والمعرفي برصد مجمل التحولات والمسارات المعرفية قصد إنماء جوانب الفكر، وتعميق الأبعاد الحضارية الضاربة في أعماق الإنسانية.

1 ـ المقدمة المنهجية في قراءة التراث

أقام (جابر عصفور) قراءته للتراث النقدي على ما سماه بــ: "مقدمات منهجية" وهي عبارة عن محطات لرؤية منهجية يباشر بها ولوج عالم التراث بدقة وصرامة تحتكم إلى مقدمات أساسية ومنهجية في الوقت نفسه. كما تشتغل هذه المقدمات في صميم العملية القرائية التي قدمها للتراث النقدي؛ لتغدو جميع العناصر القرائية تبعا وخدما لها أي أن كل ما يشكل قراءة فهو مقدمة منهجية لولوج هذه التراث والبحث في عوالمه الداخلية، وتشكل هذه القراءة مرة أخرى مقدمة منهجية فاتحة لقراءات أخرى.

1 ـ 1 ـ المقدمة الأولى

تتضمن هذه المقدمة ثلاثة عناصر:

ـ القارئ: بما يملكه من عدة قرائية وتصورات.

ـ المقروء: بما يقوم عليه من زاد معرفي ومحطات أدبية ونظرية.

ـ الدلالة الناتجة عن عملية القراءة: من حيث هي فتوحات معرفية جديدة تشكلت وفق تفاعل معرفي جمالي؛ وكل عنصر من عنصري القارئ والمقروء يتمتع باستقلال نسبي، من حيث امتلاك سياقه الخاص الزماني المكاني، أو الثقافي الحضاري. وهذا يقتضي أن تكون الدلالة الناتجة عن فعل القراءة مزدوجة:

1 ـ دلالة المقروء في سياقه الخاص.

2 ـ دلالته بالنسبة للقارئ في سياقه الخاص أيضا.

ومعنى ذلك أن تغيير القارئ "لسياق القراءة" يعني بالضرورة تغير دلالة المقروء.

تهدف هذه المقدمة إلى إثبات مفهوم "تاريخية القراءة" ونسبيتها حيث يعرض المؤلف لتعاقب أنماط القراءة مؤكدا على أن: "كل تغير يصيب (النقد الأدبي) بوجه عام أو خاص (في المنظور والمنهج والإجراءات والآليات) ينعكس على قراءة التراث النقدي، الانعكاس الذي يتأثر معه الجزء المتفاعل بالكل المتحد، في الحركة الزمنية المتعاقبة أو الآنية للتأثر والتأثير"[6] فتتطرق المقدمة المنهجية إلى جملة الأنساق "Systèmes" المعرفية التي تحكم عملية القراءة من جانب القارئ باعتبارها أداة، وهناك بالمثل جملة أنساق معرفية تحيط بالمقروء في حد ذاته تحدد قابليته للقراءة. ويقف التفاعل وسيطا "Médiateur" بين هذه الأنساق ـ أنساق القارئ والنص ـ المتناوب بعلاقته "البندولية" المتراوحة بين نسق القارئ وبين نسق النص في علاقة تجاوب وتفاعل. هذا التفاعل والتجاوب في ذاته يعني أن هناك حدثا داخل القراءة ـ دوما ـ يصله بخارجه وأن هذا الحدث ليس بنية منعزلة، مغلقة مكتفية بنفسها، وإنما هو بنية مفتوحة، عناصرها الداخلية ممتدة إلى خارجها، حيث الأنساق المعرفية الأوسع التي يتحرك فيها المقروء[7] فالقراءة من هذا القبيل تعتمد على الأنساق السابقة عنه وينطلق القارئ منها كمحطة أولية تمهيدية ليؤسس عبرها قراءة جديدة، ممهدة لأخرى في الوقت نفسه وهكذا. لأن ما يقدمه القارئ الحداثي قراءة من خلال قراءة سابقة، كل منها أشبه بطبقة معرفية مضافة إلى طبقة جهاز القراءة عند هذا القارئ من منظور "أركيولوجي" مثال هذه القراءة باعتبار عصفور قراءة ابن المعتز نفسه: الذي يقرأ القارئ المعاصر ليس مفعولا للقراءة، فقد كان فاعلا لقراءات سابقة قرأ فيها شعر المحدثين الذين نفى عنهم الحداثة، وقرأ قراءات النقاد (السابقين له والمعاصرين له، ممن يتآلف معهم أو يتنافر) لهذا الشعر. وقرأ تراثه النقدي والبلاغي مثلما قرأ التراث السابق حيث صار معه تراثه العربي قراءة للتراث اليوناني والهندي والفارسي في البلاغة[8] فالقراءة المتأخرة دوما تحمل في جنباتها أصوات السابقين ورؤاهم المتواشجة تحت لواء القراءة الحداثية.

قدمت المقدمة المنهجية صورة متكاملة لقراءة التراث والبحث فيه، للوقوف عند مجمل الأنساق والسياقات المعرفية التي شكلته. كما أتاحت إمكانية الفصل بين القراءة "الموضوعية" وبين القراءة "غير الموضوعية" باعتبار فصل الذات عن مقروئها ليتحول المقروء إلى موضوع تحيط به جملة من الأدوات تُمكِّنها الذات للقراءة وذلك على أساس أن

حدث القراءة يتضمن: "عناصر ثلاثة أساسية (القارئ والمقروء والأنساق المعرفية التي تصل بينهما وتحيط بهما) تتدرج في علاقات تنسج خصوصية الحدث نفسه، فإن اتصاف القراءة الناتجة عن هذا الحدث بالموضوعية رهين الحضور الفاعل لهذه العناصر في علاقاتها المتكاملة، وفي الوقت نفسه فإن غياب هذه الصفة، ومن ثم اتصاف القراءة بصفات مغايرة أو مقابلة، رهين غياب أحد هذه العناصر، أو بعض جوانبه أو تقليص علاقاته المتكاملة أو حذفها، أو التضخم البالغ لحضوره على حساب غيره[9].

هنا يقوم (جابر عصفور) بالدور الأساسي ــ المتمم ــ لمسار السابقين له في قراءة التراث وإعطائه تصورا، فقراءة (جابر عصفور) للتراث جاءت لتحقق ما يعني "فعالية ذاته وليس حيادها في إنتاج أو لنقل في إعادة إنتاج المقروء، مما يكشف لنا عن موقف توفيقي لا غش فيه يعرف كيف يستخلص الحداثة من القديم ليربط بينها وبين الحداثة في العصر بعد أن ينقد كلا من التراث والعصر وليس قبل ذلك"[10] وهنا نجد (جابر عصفور) يضع ذاته داخل دائرة التراث ليستشف منه ملامح الحداثة ويعرضها على المنتج الغربي ليبحث عن مطابقة صورية بين ما هو عربي خالص وبين ما هو غربي وافد.

ثالثا- مفهوم القراءة عند جابر عصفور

ركز (جابر عصفور) على القراءة "Lecture" كمفهوم ومنطلق أساسي للتأسيس لرؤية جديدة ونظرة معاصرة للتراث النقدي. كما أن (جابر عصفور) يستخدم مصطلح "قراءة التراث النقدي" بدل مصطلح "دراسة" الذي كان شائعاً، ويرجع سبب شيوع استخدام مصطلح القراءة في السنوات الأخيرة إلى الرغبة في تأكيد الطابع التفسيري (التأويلي) لكل فعل من أفعال القراءة في مختلف المجالات الثقافية من جانب، وتأكيد الدور الذي يقوم به القارئ في عملية القراءة من جانب ثان، وتأكيد الطبيعة المعرفية التي تصل القارئ بالمقروء في عملية إنتاج معرفة جديدة من جانب ثالث.

أما فيما يخص انطلاقات (جابر عصفور) في تقديم قراءة حداثية للتراث فينطلق من افتراض منهجي مؤداه أن: "كل نص من نصوص التراث النقدي لا يمكن أن نقرأه في عزلة عن غيره من النصوص"[11] نلمس من خلال هذا القول أن تحقق معرفية النص التراثي ضمن شروط القراءة عند (جابر عصفور) مرتبطة بالنظرة الكلية والشاملة للتراث، وهي قراءة تعمد مباشرة إلى فهم النص التراثي ومن ثمة قراءته وفق مستويات التشكل باعتبار النص التراثي النقدي: "وحدة سياقية واحدة داخل وحدة سياقية أو سع هي التراث كله"[12] فالتراث النقدي محتوى في التراث ككل فلسفي وأدبي وديني ومن هنا لا يمكن عزله ولا قراءته ببعد عن السياق التراثي ككل؛ لأن مجمل السياقات التي لفظت التراث النقدي هي نفسها التي لفظت التراث ككل. وما التراث النقدي إلا قراءة الفلسفي والديني، وبحث الأدب. منه يستخرج قضايا الأدب ويؤطرها، ويقعدها... وهكذا سارت حركة التتبع الأدبي والتأليف النقدي في شكل المنهج التطبيقي. وهذه العوالم الصغرى التي تشكل العالم الأكبر في مجال التراث يمكن أن تحدد اتجاهات قرائية للتراث بصفة عامة على سبيل:

ــ رؤية العالم = النص في تاريخه

ــ رؤية عالم = النص في زمن القارئ المعاصر

ومن هنا يتقاطع التاريخ مع النص الموازي وقد تتقارب الرؤيتان القديمة والمعاصرة كما قد تتباعدان. وفي العموم تشكلت قراءة التراث في الأنماط التالية:

1 ــ القراءة التاريخية:

استعان (جابر عصفور) بالمنهج التاريخي "Méthode Historique" كمحطة أولية في القراءة، قام عبرها برصد جملة من السياقات التاريخية التي شكلت سلسلة الفهوم التي دارت حول التراث، وشكلت سلسلة قراءات النص التراثي فمقاربات عصفور بالمنهج التاريخي قامت على اعتبار النصوص التراثية "نسقا واحدا غير خاضع للتراكم العشوائي وغير قابل لفعل انتقائي لا يعكس سوى أيديولوجية مفروضة على النسق، إنما هذا النسق الواحد يحكمه

التطور الطبيعي، ولهذا رأينا جابر يقرأ ابن طباطبا مثلا في ظلال سابقيه من النقاد: الأصمعي، ابن سلام الجمحي، الجاحظ، ابن قتيبة، ابن المعتز، وفي حضور معاصريه من المتفلسفين: البلخي، وأبي بكر الرازي وإخوان الصفا والفارابي وكذلك الشعراء المحدثون أمثال بشار بن برد وصالح ابن عبد القدوس وأبي نواس، وأبي تمام، يقرؤهم بجانب الشعراء التقليديين فيبدو الفارق واضحا ما بين رؤية ورؤية وما بين أساليب معتادة وأخرى مبتدعة"[13] قصد عصفور بهذه القراءة تحقيق جملة من المقاصد:

أولا: حصر المقروء، لا من خلال التاريخ الذي هو فحص لماض ميت متناثر متجزئ. وإنما بصب المقروء في مجرى التاريخ الحي الذي ينتج دوما معرفة جديدة تقترن بأدوات للمعرفة جديدة، وهذا هو معنى قراءة قدامة بعد ابن طباطبا ثم قراءة حازم بعد الاثنين."[14] هذه إحدى صور التاريخانية التي تضع النص في سلسلة المحطات التاريخية التي أنشأت له سيرورة قرائية، ووضعت له مخططا ضمن الخطاب النقدي.

ثانيا: ترمي هذه القراءة التاريخية إلى اكتشاف المؤثرات السوسيو ثقافية التي أنتجت ذلك النص القديم، مثلا تأثير سيادة الجبرية والفقه الحنبلي والنسق الأشعري (في علم الكلام) تلك التي انتصرت منذ عهد المتوكل على نزعة الاعتزال ومعها استعلاء التيار النقلي عند جماعة اللغويين وأصحاب الحديث من أهل السنة والجماعة، تلك المؤثرات السوسيو ثقافية التي أسهمت في تحضير المسرح للناقد الخليفة ابن المعتز معارض الحداثة النقدية والشعرية ــ في عصره ــ على السواء. فالجوانب الاجتماعية لها دور كبير في تأسيس الأيديولوجيا وتعميقها إلى درجة الاعتقاد؛ فالمجتمع يحقق يرسخ الثقافة بما يتداوله أفراده من ممارسات من سلوكات.

تقصد تلك القراءة ثالثا: إلى فهم النصوص ــ لا في حد ذاتها ــ بل في علاقاتها المتشابكة بعضها ببعض والملتحمة بالمشهد الثقافي المعاصر حين يحاول الناقد الحداثي فهم التراث فهما يضيء له الحاضر ويشير إلى اتجاه المستقبل[15] تغدو القراءة المعاصرة ــ التاريخية ــ للتراث جمعا لما توزع شتاتا وراءها من سلسلة القراءات والتلقيات، كما تعد هذه القراءة حلقة وصل بين الحاضر وما سبقها من قراءات لتشكل مسارا لعطف اليوم على الأمس، وربط المنهج المعاصر بالنص الماضي، ليغدو المنهج التاريخي من هذه الوجهة استراتيجية لحصر التراث في بداية الأمر، ثم إحاطته إحاطة شاملة به لتحديد ماهيته وملامحه، ثم جمعه كلية، بهذه النقاط الثلاث تشكل منطلق تاريخي لفهم التراث وقراءته قراءة نقدية فاحصة من شأنها أن تقدم له اكتشافا جديدا وتستنبط منه جملة من القواعد والأسس المعرفية في ظل فهم الأنا بالآخر والعكس صحيح.

وضَّح (جابر عصفور) هذه الصورة بشكل دقيق في إطار "مقدمات منهجية" بقوله: "لقد أصبح واضحا بعد حديثنا عن حدث القراءة، أن القارئ الذي يقرأ المقروء لا يقوم بفعل تعرُّف بكر على ما يقرأ. ويمكن أن نضيف ــ الآن ــ أن في مكونات الأنساق المعرفية التي ينتمي إليها هذا القارئ، أو التي تؤثر فيه عشرات القراءات السابقة التي تمت من داخل النسق المعرفي الذي يحرك القارئ أو من أنساق أخرى لها حضورها الفاعل في هذا النسق بالسلب أو الإيجاب"[16] ألتفت (جابر عصفور) في هذا القول إلى قضية مهمة في القراءة التاريخية للتراث باعتبار أن القارئ لا ينطلق من عدم في قراءته وغنما قراءته تكون مقترنة ومستندة على قراءات أخرى سبقتها بسنين، لأن المرجعية القرائية تمد القارئ بمجموع من الرؤى والأفكار التي تشغل الحيز المفهومي المسبوق بها، وهي تدخل بشكل أو بآخر في وعيه. مثال (جابر عصفور) في ذلك: " وإن شئنا التمثيل التوضيحي فلنتخيل قارئنا اليوم يقرأ ناقدا قديما مثل ابن المعتز في كتابه: "البديع" إن هذا القارئ لن يقع فحسب تحت تأثير القراءات المعاصرة له، والقراءات السابقة التي انسربت فيها، في سلسلة تبدأ من "الآن" الذي يقرأ فيه هذا القارئ وتمتد راجعة القهقرى إلى القديم، حيث قراءة (قدامة بن جعفر) ــ مثلا ــ (لابن المعتز) في اتجاه لمجموعة قرائية، وقراءة (الآمدي. ت: 370 هــ) في اتجاه مضاد. بعبارة أخرى، ما يقوم به القارئ المعاصر ــ في جانب منه ــ قراءة من خلال قراءات سابقة، كل منها أشبه بعدسة مضافة إلى عدسات جهاز

القراءة عند هذا القارئ على نحو لا تغدو معه العلاقة بين عيني القارئ المعاصر الذي نتحدث عنه وكتاب ابن المعتز الذي نتحدث عنه علاقة أحادية الجانب، أو بسيطة، أو مباشرة بل علاقة تمر بانكسارات المنشورات الضوئية أو العدسات الوسيطة في مختلف ألوانها ومجموعاتها."[17] شبه* عصفور القارئ المعاصر (ابن المعتز) مثلا بمن يستعين بعدسات ناقد آخر لالتقاط صورة لا تخلو من المفارقة عن السابقة، ولا تبتعد عنها كثيرا؛ استعمل عصفور "العدسة" على أساس أدوات القراءة التي تقرب الفهم وتقرب عصر المقروء كإسقاط مجازي على الناقد، لتغدو القراءة النقدية هنا: قراءة من خلال قراءات سابقة، وتُعد كل قراءة جديدة منها أشبه بعدسة مضافة إلى عدسات جهاز القراءة عند هذا القارئ أو ذاك. وبالتالي لا وجود لقراءة منطلقة من عدم أو كما قال عنها عصفور قراءة منطلقة من درجة "صفر": "ومعنى ذلك أننا لا نبدأ من درجة صفر القراءة لأن هذه الدرجة غير موجودة ابتداء"[18] في كل الحالات لا توجد قراءة بكر ولا أخرى منطلقة من الصفر؛ فالقارئ حينما يقرأ النص إنما ينطلق من وعي مسبق، ومن تصور مسبق عن ذلك المقروء، فشكل القراءة وقالبها موجودان والتصريح بهما تم بشكل مسبق، وهنا يتكرس مبدأ القراءة التراكمية المؤسسة لتاريخية النص بوجه عام.

2 ــ القراءة البنيوية التكوينية

يقوم المنهج البنيوي الذي طوره (لوسيان غولدمان) "Loucien Goldman" تحت مسمى Structuralisme "génétique" وترجم إلى العربية بترجمات مختلفة (تكويني، توليدي، تركيبي) يقوم على المرتكز المشار إليه هنا، أي ارتباط العمل بعلاقة وثيقة، وجدلية كما يقول غولدمان، بين العمل، سواء كان فلسفيا أم أدبيا أم غير ذلك، بالمجموعة أو الفئة الاجتماعية أو الطبقة التي ينتمي إليها الكاتب، على أساس أن هناك بنى تحكم تفكير المجموعة وتنعكس في العمل من خلال (غولدمان) بالهومولوجي، أو التشابه (وهو مصطلح يستخدم في علم الأحياء لوصف ما يعرف لدى الإحيائيين بتشابه السلاسل الأفقية بين الجينات داخل الكروموزومات) وينطلق مفهوم ((رؤية العالم)) الذي استمده (غولدمان) كما يقول (سعد البازعي) من (لوكاش)، من هذا الأصل الجماعي الذي يجعل مجموعة من الأعمال تتشابه من حيث البنى، فرؤية العالم كما يراها (غولدمان) هي ذلك الواقع الذي يتجاوز الأفراد بوصفهم أفرادا ويعبر عن نفسه من خلالهم[19] وما الواقع من هذا المنظور إلا ممارسات أولئك الأفراد وأفعالهم التي انعكست في الأدب باعتبارها تعبيرا عن ذلك الواقع/الحياة برؤية جمالية لا تخلو من الفن، كما لا تخلو من الأيديولوجيا.

2 ــ 1 ــ إجراءات القراءة البنيوية التكوينية

تَرى البنيوية التكوينية أن منشأ الأدب اجتماعي بامتياز لأن: "العمل الأدبي يمثل موقفا من الحياة والواقع باعتباره ليس مجرد انعكاس بسيط لوعي جمعي، بل تعبير موحد متلاحم عن توجهات ومطامح جماعة بعينها أو في المجمل تعبير عن رؤيتها للعالم"[20] هنا تشتغل البنيوية التكوينية* في رصد البنى التي شكلت العمل الإبداعي باندماجه تحت وحدات أساسها المجتمع الذي أولاها وظيفة خاصة وأكسبها حركية فاعلة يقول (جابر عصفور) "يلح غولدمان في هذا الإطار على أن الإبداع الأدبي جانب من جوانب السلوك الإنساني، قد يكون جانبا متميزا لكنه يظل جانبا ينطوي على الطبيعة نفسها التي تحكم غيره من الجوانب فيظل خاضعا للقوانين نفسها (...) وينطوي هذا المبدأ العام على التسليم بوجود خاصية شاملة تؤكد أن السلوك الإنساني لا يمكن أن يكون سلوكا إلا إذا كان دالا أو يسعى إلى أن يكون دالا"[2] يُعد سياق الحديث في هذا المقام يعد بمثابة مواجهة غولدمان للبعد الشكلي لبنيوية (ليفي شتراوس) " Claude Lévi-Strauss" لأن البنيوية عند (غولدمان) توليدية الأمر الذي يقتضي ربطها دائما بذات ووظيفة دالة في التاريخ وليست خارجة عنه.

لما انتقال منهج "البنيوية التكوينية" إلى الوطن العربي فكان كسابق عهد التفكير النقدي العربي في تلقي المنهج والدرس الفكري الغربي عامة؛ إذ كان حال البنيوية التكوينية كحال اللسانيات والبنيوية عموما حيث "حفلت العقود الثلاثة

الماضية بالكثير من الدراسات التي تعرِّف بالمنهج وتشرحه وتسعى إلى تطبيقه حتى لم يعد من المبالغة أن نقول إنه بات من أكثر المناهج الغربية حضورا وانتشارا على مدى الثلاثين عاما الماضية، وربما أكثر فروع البنيوية والماركسية اجتذابا للذهنية النقدية العربية.[21] فنشر (جابر عصفور) مقالة في مجلة فصول المصرية عام 1981 بعنوان "عن البنيوية التوليدية (مجلد 1، عدد 2. يناير 1981)" حيث أشار في هذا المقال إلى أن انتشار البنيوية التكوينية في الوطن العربي كان تحديدا بعد حرب 67، باعتبارها ولَّدت وعيا لدى المثقفين العرب جعلهم يسعون إلى الخلاص من الاستقطاب الفكري والنقدي إلى أحد المعسكرين المتصارعين السوفييتي والأمريكي بالبحث عن بدائل، فرأوا "في البنيوية اللغوية بديلا أكثر وعدا من أفكار النقد الجديد التي أصابها الهزال، وفي البنيوية التوليدية بديلا أكثر تماسكا في منطلقه العلمي من نظرية الانعكاس خصوصا في تجلياتها العربية التي لم ترق في كثير من مجالاتها إلى مستوى الأصل"[22] علق سعد البازعي على كلام (جابر عصفور) فيما يخص ضرورة التعامل مع البنيوية التوليدية/التكوينية بقوله: "يبدو تحليل عصفور مفيدا لفهم التحولات المنهجية/الفكرية لدى النقاد العرب في مرحلة السبعينيات، لكنه لم ينته إلى ملاحظة مهمة تستثير سؤالا ما يزال مطروحا، هو: هل استطاع الاهتمام العربي بتلك المناهج البديلة، ومنها التكويني أو التوليدي، أن ينجح حيث فشلت المحاولات السابقة في توظيف المنهج الماركسي التقليدي؟ هل استطاعت البنيوية التكوينية أن ترقى في توظيفاتها العربية إلى مستوى الأصل؟"[23] يبدو (جابر عصفور) - في مقالته المشار إليها - متفائلا بشكل واضح، وقد يعود ذلك إلى إسهامه المعروف في تبني المنهج، على الأقل على مستوى الشرح والمناقشة؛ فهو يتبع تحليله المفيد لأسباب التحول عن النقد الجديد والماركسية التقليدية بنغمة مستبشرة: (هكذا بدت البنيوية بوجه عام بشارة لعهد عربي جديد من النقد...) غير أنه يعود ليشير إلى أن الاهتمام العربي بالبنيوية عموما نتج عن مفارقة تتمثل في أن ذلك الاهتمام لم يبدأ إلا بعد انحسار المد البنيوي نفسه في موطنه الأصلي.

يؤكد (جابر عصفور) على ضرورة إعادة قراءة التراث النقدي في ضوء المكتسبات والمعارف المنهجية الجديدة لا سيما اللسانية منها[24]، باعتبار النص المقروء مفعم بمادة لسانية تتماشى والدرس النقدي المنهجي الغربي المعاصر وعلى القارئ الحداثي المندرج داخل إطار القراءة الحداثية للتراث أن لا يغفل هذه الإضافات والإسهامات الناتجة عن محاولة تطبيق علم اللسانيات على منهج قراءة التراث، كما ينفتح هذا المقروء على المنهج المعاصر ويستجيب لأدواته وإجراءاته القرائية، ويبقى المنطلق الأساسي في هذه الاستجابة هي أن النص المقروء يلح على القراءة الجديدة المغايرة لما تم تقديمه سابقا.

2 ــ 2 ــ رؤية العالم

طبق (جابر عصفور) مفهوم "رؤية العالم" "Vision du monde" على التراث النقدي "لما يدعم استخدامهما في ميراثنا البلاغي والنقدي"[25] لأن المنجز الأدبي/النقدي تحكمه تصورات تشكلت وفق بنى نابعة من ذات الفرد المبدع، ومتشكلة أيضا من جميع الذوات التي تعد بالآلاف باعتبار المرجعية القرائية والتأثير في ذلك المبدع الذي أنتج. وهنا يشتغل طرح (جابر عصفور) تمثلا لرأي (لوسيان غولدمان) في أن رؤى العالم "أبنية متولدة ومولِّدة في الوقت نفسه"[26] وهذه هي صورة التراث إذا أسقطنا عليه فكرة الأبنية المتولدة باعتبارها قراءات سابقة أُنتجت في زمن متتال ومتعاقب ــ تاريخاني ــ تشكلت بصورة تراكمية حيث تأسست كل قراءة على ما سبقها، وتؤسس لما يعقبها من قراءات، وهكذا تغدو كل قراءة مولِّدة لما يأتي بعدها من قراءات بعد أن تولدت عن سابقتها. فرؤية العالم "تتشكل نتيجة عمليتين متجاوبتين ومتوازيتين على السواء: فاعلية الخلق التي يمارسها المبدع في علاقته بالعمل الذي يسعى إلى إنجازه من ناحية، وعلاقة هذا العمل بمئات إن لم يكن آلاف الأعمال السابقة عليه، وتتناص معه بما يجعله نصا متناصا بالضرورة. ويوازي ذلك فاعلية القراءة عند المتلقي، وذلك بما يجعل منها قراءة متناصة بالضرورة تطلق سراح وعي القارئ أثناء عملية القراءة (...) فكل قراءة هي نتيجة للفاعلية المتبادلة بين طرفيها: القارئ والمقروء"[27] فمفهوم رؤية

العالم* عند (جابر عصفور) إذن: يقوم على أساس أنها "كيان وجودي (أنطولوجي) قارّ داخل العمل وخارجه في آن، وهو ما يترتب عليه فهم هذه الرؤية بوصفها أساسا معرفيا لفهم العلاقة بين الأجزاء والكل داخل كل بنية من ناحية أولى، وفهم العلاقة بين أبنية الخلق الثقافي بعضها ببعض من ناحية ثانية، وبينها جميعا وبنية أخرى أشمل تحكمها وتنظمها وتصل ما بينها والأوضاع التاريخية للمجموعة الاجتماعية أو الطبقة من ناحية أخيرة"[28] فمنظور رؤية العالم في قراءة التراث النقدي ترصد زمن إنتاج النص وانبثاقته الأولى في ظل الأنساق الثقافية التي أثرت على الناص وشكلت من ثمة النص وفق المنظومة المجتمعية التي لفظته "بيد أن العمل الأدبي المدروس لا يمكن أن يُفهم إلا عبر إدراجه في مجموع الظروف أو الإطار العام الذي كتب فيه، مع حشد كل السياقات التاريخية والأديولوجية المؤثرة في عملية الكتابة والصانعة لأبعاد تلك الرؤية. ذلك أن هذا العمل مهما أغرق في الفردية فإنه متجه بطبيعته إلى الخارج"[29]

فجاء في شكل تساؤل إنكاري ختامي وضعه (عصفور) من خلاله العمل التطبيقي لهذه الرؤية في قوله: "تُرى في أي اتجاه يمضي فهمي لمصطلح رؤى العالم؟ المؤكد أنني لا أسجنه في مدار واحد مغلق، فهو يأخذ من النقاد العقلانيين تصورهم للرؤية التي هي تجسيد نظرتهم أو موقفهم من الحياة والواقع، ويأخذ من نقاد الحداثة تصورهم عن الرؤيا التي تضيق معها العبارة (...) المؤكد في تقديري، أن الإخلاص في معالجة النصوص الشعرية ومحاولة النفاذ إليها عبر أكثر من طريق، والإنصات إليها بأكثر من وسيلة، والتطلع إليها من كل زاوية ممكنة."[30] هذه دعوة إلى ممارسة قراءة متعددة ومختلفة على النص، تنفتح على جميع زواياه المختلفة لتثريها أكثر وتسلط عليها الضوء باتساع بما يجعلها متاحة للجميع. مع اقتران هذه القراءة بشرط فحواه الإخلاص الذي يجعل القراءة جديرة في آن وتجعل المقروء مهما ومنتجا في الآن نفسه.

3 ــ القراءة على القراءة "نقد النقد"

يقوم مفهوم "نقد النقد" عند (جابر عصفور) على أنه: "قول آخر في النقد يدور حول مراجعة القول النقدي ذاته وفحصه، وأعني مراجعة مصطلحات النقد وبنيته التفسيرية وأدواته الإجرائية"[31] يبدو أن تعريف (جابر عصفور) أكثر شمولية ووضوحا ومنهجية؛ فقد ضبطه على أنه بحث في مصطلحات النقد بمراجعتها والوقوف عند مفهومها ومجمل الأقاليم التي نبعت منها وانتقلت إليها، وهي إشكالية ليست بالهينة. كما التفت في تعريفه إلى البنية التفسيرية القائمة على مختلف السياقات المعرفية التي تشتغل بها القراءة وتحيط بالنص كقوى خارجية عنه تضرب فيه وتكون أجزاءه، كما تقوم على مختلف الأنساق والأنظمة التي شكلت النص أيضا وكونت معالمه الكبرى ومحاوره الأساسية. فيفضي هذان العنصران ــ المصطلح والبنية ــ في نهاية التعريف إلى تشكيل الآلية التي يشتغل بها النقد ويتوسل بها إجراء وممارسة، قصد الوقوف عند مدى فاعلية المنهج وصلاحيته للاشتغال على النص، والوقوف عند سلسلة وتاريخية القراءة المتعاقبة التي ترصد في أساسها سيرورة هذه الآلية ومدى فاعليتها في النص عبر الزمن. الذي ينقل النقد من مستوى أول إلى مستوى نقد النقد، ويعمل على تأصيل معرفي للمقولات العقلية التي تنطوي عليها المفاهيم المنهجية والعلمية الإجرائية للنقد والقراءة وتصدر عنها. فهي بهذا ترسم تصحيحا للمسار النقدي وتتضمن تصورا لما ينبغي أن يكون عليه في مرحلة تأمل النقد لنفسه، لتكون القراءة استنطاقا للصوت المتحكم في النقد نفسه وشموله لصداه الآتي من مختلف علاقاته التكوينية وخصوصا من جانب:

ــ مستوى العلاقة القائمة بين القارئ وما يتناص معه من تراثه المقروء.

ــ مستوى علاقة هذا القارئ بالأنساق المعرفية في عصر القراءة، أي بأدوات إنتاجها للمعرفة وعلاقاتها.

ــ علاقة المقروء نفسه بنسقه في عصر إنتاجه من حيث ما يتضمنه من حضور تاريخ وأدوات المقروء وليس القارئ.

ــ علاقة المقروء في نسقه بغيره من الأنساق المعاصرة والسابقة أو اللاحقة.[32]

وهنا يتحقق مرة أخرى مفهوم (جابر عصفور) لنقد النقد في صورته التطبيقية على التراث النقدي ومجمل القراءات والفهوم التي دارت حوله. فإعادة تشكيل النقد لنفسه نابعة من فكرة تحيين الأدوات والإجراءات بما يتماشى مع خطاب العصر النقدي، وبإعادة قراءة النقد لأدواته وإوالياته بنفسه بما يتحقق لديه من خبرة مجموعةٍ من الممارسة التطبيقية.

رابعا ــ تمثلات جابر عصفور للقراءة الحداثية

أراد (جابر عصفور) أن يؤسس لعقل عربي معاصر، يحقق ذاتا عارفة ومتمردة في الوقت نفسه على كل ما هو قديم في إدراك الوجود ووعيه، حيث هو قائم على ثقافة استهلاك الجاهز والوقوف عند تصورات القديم والأخذ بها دون عناء التفكير في ما يتماشى والعقلية المعاصرة، ودون الاهتمام بهذا التفكير الجاهز من حيث؛ مناقشته ووضعه تحت عدسة مناهج التحليل والمناقشة. فتنفتح القراءة ــ هنا ــ في بعدها الحداثي بالتمرد على ذلك التفكير القائم على محوري الأنا والآخر أو تحت مسمى إشكالية الأصالة والمعاصرة فحسب، الذي أتاح قراءة تحكمها البساطة والسذاجة المخلة بالخطاب النقدي القائم على الوعي.

تدعو القراءة الحداثية الناقدَ إلى تمثُّل أدواتها وإجراءاتها وهذا ما سماه بـــ: (تحديات الناقد الحداثي/المعاصر) حيث تتطلع هذه القراءة إلى المستقبل بانطلاقها من قراءة الواقع، واستيعاب لحظات التشكل المتجددة مع التفاعلات في ظل العلاقات الزمانية والمكانية، لتغدو الحداثة "اللّحظة التي تتمرد فيها الذات العارفة، فردا أو جماعة، على طرائقها المعتادة في الإدراك، شاعرة أنّها لا بد أن تبدأ في فعل مساءلة جذرية لكل من حولها، على كل المستويات غير غافلة عن وضع نفسها هي موضع المساءلة ولذلك فالحداثة تبدأ من اللّحظة التي تنقسم فيها الذات العارفة على نفسها لتغدو للمساءلة مفعولا لها، وذلك في الوقت الذي تجعل من العالم الذي تُدركه موضوعا للمساءلة نفسها"[33] تدعو القراءة الحداثية إلى فتح المساءلة المنهجية على المفاهيم السائدة/التراث قصد إعادة تشكيل الذات ودمجها في أفقها المعاصر الذي يليق بكينونتها وذلك وفق مستويين:

1 ــ رفض الخطاب الراهن

تدعو القراءة الحداثية إلى التمرد على القراءة القديمة البائسة المستسلمة لأجوبة الماضي والإغراق في التراث؛ بجعله الكافي في التفكير وقبول منه كل ما يشكل حلا للراهن. ولا تفكر في إعادة مساءلته وتغطية جوانبه بتجديد البحث وإعمال النظر فيه. فعقل الناقد الحداثي هو حياة متجددة ورحلة من البحث والكشف، وتجديد الآلية النقدية كعدة لإعادة البناء واستمراره، ودعا عصفور ــ على صعيد آخر ــ إلى انفتاح الخطاب النقدي المعاصر على التعددية المعرفية؛ بالتضافر المنهجي والتخلي عن الأحادية المنهجية في القراءة. لأن التراث في حد ذاته هو تشكل من وجهات معرفية مختلفة، ومكوَّن من آراء وفلسفات مختلفة أيضا، وهنا تتشكل ضرورة تعددية المنهج القرائي وانفتاح النص على مختلف المعارف والعلوم التي تسهم في قراءته، باعتبار "كل تجديد أو تغيير أو تحديث هو تهديد للأنساق القائمة والعادات المتقادمة والأعراف المتحجرة، ولا سبيل لإبقاء هذه الأنساق والعادات والأعراف على ما هي عليه إلا بإقصاء كل ما يخالفها، أو يختلف عنها، واستئصال كل ما يخرج عليها، ويهدد حضورها الجامد واستمرارها الساكن. والعنف الذي يقاوم به الجديد هو العنف نفسه الذي تقاوم به أية محاولة للتغيير، وهو عنف يهدف إلى الإبقاء على ما هو قائم واستئصال كل ما ينطوي على تهديد للقائم الثابت المتكرر الذي لا يمكن رفضه، أو وضعه موضع المساءلة، أو انتهاكه بالتغيير في مدى تقاليده الراسخة"[34] فالتراث متلبس بوعي أو غير وعي بأشكال "الأحادية" الراكنة إلى تقديسه وعدم المساس به أو التفكير في قراءته وتقديم صور متفاعلة بينه وبين العصر، وهو ما كرس التخلف والنظرة الماضية المستسلمة، وهنا يغدو "مستقبل الأمة التي يسيطر عليها تقديس الماضي وراءها وليس أمامها، وهو عود على بدء مفترض، أو متخيل، يظل في حال من التأويل المستمر، ليضفي صفة الشرعية على "بدع الهداية" المقيسة عليه، وينفي هذه الصفة عن "بدع الضلالة" المخالفة له"[35] فالتمرد على المعاملة القديمة للتراث ضرورة وواجبة أمام تحديات الخطاب

النقدي المعاصر مع (حابر عصفور)، ويبقى تجديد آليات القراءة وفق القراءة الحداثية وآفاق الناقد الحداثي غاية للخطاب النقدي المعاصر الذي يطرح أسئلة قلقة ومساءلة تحمل في طياتها بذور الشك الفعال الذي يفضي في النهاية إلى تأسيس جملة من المقومات والمعايير القرائية.

2 ـ آفاق القراءة وانفتاح الذات

تتجسد الحداثة من حيث العامل الزمني حينما تتوسط منزلة بين منزلتين؛ أولاهما تشد وثاقها بما سبقها، تتشبث به محاولة الإبقاء عليه كحبل سري يمدها بأنواع الغذاء الجاهز، وهو يكبلها ويدخلها في عطالة لا تبحث عن جديد يتماشى مع عصرها. أما المنزلة الأخرى فهي لحظة تشكل الوعي المتمرد الطامح إلى مواكبة العصر، والبحث عن مكان في ذلك الوجود ليحقق وزنا وكثافة لذلك الوعي، كما يكتسب طابع القوة في الأداء بأن يتوسل بالإجراء الدقيق والآلية المتمكنة من إعادة قراءة الحلقة الرابطة له بسلسلة الماضي، وهنا يتشكل الوعي ويصبح قادرا على استيعاب الذات المعاصرة بعطفها على ماضيها/تراثها وانبنائها داخل الوجود الجديد الحداثي الداعي إلى التجديد فزمن القراءة الحداثية هنا "هو الزمن الذي يقع في المنطقة الوسطى ما بين التخلف والتقدم. هو زمن التغير الذي تتقسم قواه وعلاقات إنتاجه على كل المستويات: بين الواقع القائم والممكن المحتمل، بين تقاليد الماضي الجامد وإرهاصات الزمن القادم الذي يُخايل بوعود التغير والتطور، واعدا بالخروج من الجمود على كل المستويات إلى الحركة الحرة صوب المستقبل الأكثر تقدما في كل مجال من مجالات الحياة. هذه اللّحظة التي تأتي في الما بين. وفيما يصل ويفصل بين زمانين هي لحظة انقسام وصراع انقسام ما بين عالم قديم قائم، وعالم جديد يلوح في الأفق، وصراع ما بين مؤسسات العالم القديم وأجهزته المعرفية والعلمية والتعليمية"[36] وهكذا تتسم القراءة الحداثية للتراث بأنها نبوءة رؤية استشرافية للمستقبل باعتبارها جملة من العناصر:

ــ تتشكل في سيرورة الزمن الحداثي.

ــ زمن القراءة الحداثية يستوعب أبعاد الإنسانية ماضي حاضر مستقبل.

ــ يكتسي طابع الجدية وقوة الإجراء.

ــ يتمكن من رصد الذات ووضعها في لحظة الكينونة المتجددة التي تدعم الرأي بالتراث وتقرؤه بأوجه الحداثة الممكنة.

ــ قطيعة من أجل الاتصال؛ قطيعة مع قداسة الماضي/القديم قصد التواصل معه من جديد بقراءة معاصرة تطرح عليه أسئلة منهجية، وتسلط عليه أدوات وإجراءات معاصرة تتسم بالعلمية وفق المستويات التي يتشكل منها هذا المقروء من لغة وبلاغة ومنطق وتصويرات/معاني "ومن يريد أن يفيد من هذا التراث في تأصيل حداثته أو تجذيرها، عليه باختيار التيار الذي يتقارب وتوجهاته الحداثية، ويدعمها بما هو قادر على دفعها. والعقلانية هي الوجه الآخر للنزعة الإنسانية من هذا المنظور الذي لابد من إعادة قراءة التراث في ضوئه"[37] فمنطلق (جابر عصفور) من القراءة الحداثية هو تجديد الخطاب القرائي بالبعد عن الخطاب التقليدي القديم، الجاهز والمستهلك، المتسم بالقداسة التي تبعث على الالتزام به... بتجاوزه إلى خطاب آخر أكثر وعيا وجدية، يتسم بإعمال العقل والتعمق في الفهم، فهو يدعو إلى إنشاء خطاب عقلاني له سمة النزعة الإنسانية المنشودة في الخطاب المعاصر، الذي لا يسهم في الانتقال بمجتمعه من شروط الضرورة إلى آفاق الحرية إلا إذا كان الفاعلون لهذا الفعل على مستوى الخبرة العميقة بالواقع، وجرعات الدواء اللازمة له ومواصفات الخطاب الذي يخرجهم من حوارات الغُرَف المغلقة إلى التأثير الفعال في ثقافة المجتمع وإشاعة الاستنارة فيه كما أنه على المثقف أن يتجاوز مرحلة الاتباع والتقليد إلى مرحلة الاجتهاد والابتداع. لأن ثقافتنا قائمة على استهلاك المعرفة الوافدة من العالم المتقدم فحسب ولا تسهم في إنتاجها، بسبب تخلف عُدة إنتاج المعرفة عندنا [38].

عقد (جابر عصفور) موازنة بين القراءة القديمة للتراث وبين القراءة الحداثية متطرقا إلى الخصائص المحورية التي تقوم عليها القراءتان؛ فالقراءة الأولى مرفوضة لا خير فيها، ونحن لسنا في حاجة إلى صور مكرورة تقتات على

الجاهز، وإنّما نبحث عن عقول مبدعة تؤمن بالوعي النقدي وروح المساءلة التي يمكن أن تكون مدخلا أوليا لمجاوزة هذا القصور المعيب. كما اشتملت القراءة الحداثية على أسماء لامعة من رواد القراءة الحداثية للتراث التي قدمت إضافة إلى الخطاب النقدي العربي ووسمته بطابع المنهجية والمعاصرة بداية (بإدوارد سعيد) الفلسطيني وليس انتهاء بعبد الفتاح (كيليطو) المغربي في مجال النقد الأدبي، أو (سمير أمين) المصري أو (العروي) المغربي، وغيرهم من القلة القليلة التي تجاوزت عقلية النقل ووصلت إلى مدى الإضافة. ولا يرجع سبب ذلك إلى تحسين شروط إنتاج المعرفة وعلاقاتها في المجتمعات الغربية فحسب، بل تعود في الوقت نفسه إلى سلبية الوعي النقدي عندنا، بوصفنا مثقفين، وعجزنا ــ في حالات كثيرة ــ عن المساءلة الجذرية فيما نأخذه عن الغرب الأوروبي ــ الأمريكي، والنتيجة هي عجزنا عن صنع كليات جديدة، وابتكار حلول غير مسبوقة على المستوى الفردي قبل الجمعي[39]

كما وقف عند ممكنات النهوض بالخطاب النقدي المعاصر بتقديم قراءة حداثية تعتمد في محاورها الكبرى على القيام بإدانة الذات، وعدم الاكتفاء بإلقاء اللّوم على غيرنا. بدل أن نبدأ بأنفسنا وأن نغير لحمة العقل وسداه داخل كل واحد منا. ولنبدأ بأن نتعلم آداب الحوار من جديد. واحترام حق الاختلاف وليس استخدامه شعارا دون مضمون فعليّ، ونحترم الشّك والتجريب والمغامرة عند غيرنا، والتمثيل النقدي لأصول أي مجال معرفي قبل ادعاء المعرفة به، أو الثرثرة الجوفاء عنه. وعلينا ــ بالقدر نفسه- أن نؤمن بنسبية المعرفة، ونجعل للعقل والتفكير العلمي دائما، ونكون قدوة لغيرنا في نبذ منطق الخرافة، وقس على ذلك غيره الكثير، فهل نفعل، ومن أين نبدأ؟ ذلك هو السؤال الذي ينبغي أن يجيب عنه كل واحد منا في صدق جارح مع النفس من غير آليات دافعية، أو تبريرات هروبية.[40]

فإدانة الذات وعدم رفع عنها التهمة، وإعمال العقل في النص والمقروء، والأخذ بتعلم آداب الحوار من جديد لعقد لتحقيق الفهم، واستيعاب الآخر بما هو تراث وبما هو غرب يبعد عنا بثقافته مسافات؛ ونلمس هنا تأسيسا لثقافة المغايرة بأن نفتح أبواب التغيير على ثقافتنا وفهمنا. كما أن احترام حق الاختلاف بتقبل الآخر المختلف عنا والتعيش معه بما هو مغاير لنا؛ وهنا تتأسس ثقافة الاختلاف. فتنتج هذه الثقافات البديلة للثقافة الواحدة قدرة على اقتحام عالم الممكن باحترام الشّك والتجريب للانطلاق، وبالإيمان المطلق بنسبية المعرفة التي تعمل على المثابرة والإعادة، ثقافة لا تعرف العراقيل ولا تعرف الاستسلام؛ خاصة أمام عائق لطالما وقف أمام تفسير بعض الملامح والنصوص باسم "الخرافة" التي تحل أمام عجز العقل واستسلامه، فالقراءة الحداثية تنبذ منطق الخرافة وتتجاوزها إلى إعمال العقل وتدبيره بشكل مطلق، وهذه إشارة إلى العقلانية المفتوحة القائمة على التجريب والمشاهدة والتعلم.

يقوم الخطاب النقدي عند (جابر عصفور) على ثلاثة محاور، انطلقت من الخلفيات المعرفية والمرجعيات القرائية إذ توزعت هذه المرجعيات بين تراثية وأخرى حداثية وهو ما يتضح من خلال تتبع أعمال (جابر عصفور) النقدية؛ حين انطلق منذ البداية من مقدمة كتابه 'قراءة التراث النقدي" بمسلمة مفادها أنه يزداد اقتناعا بأنه: "لا توجد قراءة بريئة، أو محايدة للتراث. ذلك لأننا نقرأ التراث، ننطلق من مواقف فكرية محددة، لا سبيل إلى تجاهلها، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدد إطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننطلق منها"[41] هذا التأكيد الذي ينطلق منه (جابر عصفور) يتيح للقارئ التأمل في مجمل ما يحمله من أدوات منهجية وإجراءات نقدية، ويحمله على أن يضع في حسبانه مدى الفواصل التي تكون بين الممارسة النقدية بالمنهج؛ أي بحدود الموضوعية التي يكتسبها المفسِّر من خلال المنهج وسلطته، وبين الذاتية التي تتدخل بشكل صريح في التفتيش عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة... وهنا يرى (جابر عصفور) أن عبارة "قراءة التراث النقدي" يمكن فهمها على مستويين: نظري وتطبيقي.

هوامش البحث:

1 محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ص: 272.

2 جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص 9

3 المصدر السابق، ص: 34.

4 المرجع السابق، ص ص: 117 ــ 118.

5 ينظر: المرجع نفسه، ص: 118.

6 جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص: 19.

7 ينظر: المصدر نفسه، ص: 59.

8 ينظر: جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص ص: 74 ــ 75.

9 ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 61 ــ 62.

10 مهدي بندق، حداثتنا المعاصرة ، ص ص: 118 ــ 119.

11 جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص6.

12 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

13 مهدي بندق، حداثتنا المعاصرة، ص: 119

14 المرجع نفسه، ص ص: 119 ــ 120.

15 المرجع نفسه، ص: 120.

16 جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص: 74.

17 جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص: 74.

* ثم قدم جابر عصفور مثالا آخر عن القراءة الجديدة المعاصرة لناقد قديم مختلف عن عصر القارء، وكذلك له سلسلة من القراءات بقوله: وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى قلنا إن ابن المعتز نفسه الذي يقرؤه القارئ المعاصر ليس مفعولا للقراءة، فقد كان فاعلا لقراءات سابقة، قرأ فيها شعر المحدثين والذي نفى عنهم الحداثة، وقرأ قراءات النقاد (السابقين عليه والمعاصرين له، ممن يتآلف معهم أو يتنافر) لهذا الشعر، وقرأ تراثه النقدي والبلاغي مثلما قرأ التراث السابق عليه (جمعا وإفرادا)، بالمعنى الذي صار معه تراثه العربي قراءة للتراث اليوناني والهندي والفارسي في البلاغة. المصدر نفسه، ص ص 74 ــ 75.

18 المصدر نفسه، ص: 75.

19 سعد البازعي، الاختلاف الثقافي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص: 305.

20 يوسف أنطاكي، سوسيولوجيا الأدب، الآليات والخلفية الإيبستمولوجية، رؤية للنشر، ط1. المغرب، 2009. ص: 22.

* الأدب عند غلدمان هو التعبير عن رؤية العالم، عن نمط من الرؤية والإحساس بعالم ملموس من الكائنات والأشياء. صحيح أنّه يمكن أن يكون هناك فارق قد يكبر وقد يصغر بين النوايا الواعية أو الأفكار الفلسفية والسياسية والأدبية للكاتب.

2 جابر عصفور، نظريات معاصرة مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1998، ص: 142.

21 ينظر، سعد البازعي، الاختلاف الثقافي، ص ص: 305 ــ 306.

22 جابر عصفور، عن البنيوية التوليدية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، مجلد 1، عدد، 1، 1981، ص:217.

23 سعد البازعي، المرجع السابق، ص: 311.

24 ينظر: عز الدين إسماعيل، مقدمة كتاب قراءة جديدة لتراثنا النقدي ،أعمال ندوة السعودية، المجلد 1، ص: 21.

25 جابر عصفور، رؤى العالم، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص: 5.

26 المصدر نفسه ، ص: 15.

27 المصدر السابق، ص: 17.

* مفهوم رؤية العالم من المرتكزات الأساسية التي بنى عليها غولدمان نظريته في دراسة التاريخ الثقافي الأوروبي وتحليله بمزيج بنيوي/ماركسي، توصله إلى أن فهم كاتب من الكتاب لا يمكن أن يتم إن نحن اكتفينا بدراسة ما كتب أو ما قرأ وما تأثر به، لأننا عند إذن سندرس أفكار الكاتب التي لا تعدوا أن تكون (جزءا من واقع أقل تجريدا، هي حياة الإنسان كاملة). سعد البازعي، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، ص: 304.

كما أن رؤية العالم عند غولدمان هي الكيفية التي يحس فيها وينظر بها إلى واقع معين، باعتبارها استراتيجية بحثية معمقة توصل إليها غولدمان كحصيلة استيعاب معمق لنظريات ومقولات فلسفية لكل من هيجل وماركس ولوكاتش وكوفلر، الذين ربطوا بين الواقع الفعل المعيش وفهم هذا الواقع، فكانت رؤية العالم بمثابة الحاسة الذهنية السابعة بعد الحدس التي يتوسلها الإنسان (العبقري في مجتمعه) في كشف حقيقة الواقع وجوهره وأبعاده فيجسدها عبر أعماله الإبداعية التي تعكس درجة عمق الرؤيا وإدراك الواقع اللذان يقوم عليهما موقف الإنسان من العالم. محمد الأمين بحري، البنيوية التكوينية، منشورات الاختلاف، بيروت لبنان، ط1، 2015، ص: 168.

28 المصدر السابق، ص: 16.

29 محمد الأمين بحري، البنيوية التكوينية، ص: 168.

30 جابر عصفور، رؤى العالم، ص: 17.

31 جابر عصفور، قراءة في نقاد نجيب محفوظ، ملاحظات أولية، فصول، المجلد1، العدد 3، أبريل، 1981، ص: 164.

32 المرجع السابق، ص: 282.

33 جابر عصفور، الهوية الثقافية، ص: 13.

34 جابر عصفور، نقد ثقافة التخلف، ص ص: 126 ــ 127.

35 جابر عصفور، نقد ثقافة التخلف، ص: 127.

36 جابر عصفور، الهوية الثقافية، ص ص: 14 ــ 15.

37 المصدر نفسه، ص: 22.

38 ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

39 ينظر: المصدر السابق، ص24

40 ينظر: المصدر نفسه، ص25.

41 جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص: 5.